المجلس العلمي

المحاضرة العاشرة (10):
الحرف والصناعات في أيالة تونس

عناصر المحاضرة:

- تمهيد
- استراتيجية السلطة في مجال الحرف وتنظيمها
- أهم الصناعات
- الإنتاج الحرفي
- خاتمة

تقديم:

لم تكن الصناعة أقل أهمية من النشاط الفلاحي، حيث لقي هذا النشاط هو الآخر عناية من طرف السلطة. فمنذ بداية القرن الثامن عشر بدأ الحرفيون يتخلون على منتجاتهم التقليدية أمام تدفق المنتجات الأوربية الصناعية المتفوقة، ولم يعد التجار المحليين سوى باعة للبضائع المستوردة[1]، وبالتالي عملت السلطة التونسية على تشجيع الانتاج الصناعي والإسهام في الحرف المنتجة والمربحة.

1-استراتيجية السلطة في مجال الحرف وتنظيمها:

-تشجيع للحرفين مع إحاطتهم بالاهتمام والدعم اللازم.

-الحرص على اقتناء المنتوجات المحلية كارتداء الألبسة من طرف الصناع التونسيين (الطيلسان)

– التخلي عن كل ما يستورد من الخارج[2] وجعل السلعة المحلية في مقدمة المقتنيات من قبل كل فئات وطبقات المجتمع.

– توفير المواد الأولية ذات النوعية الجيدة التي يحتاجها الصناع عن طريق عقد معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية مثل الصوف الرفيع الذي كان يستورد من إسبانيا الموجهة خصيصا لصناعة الشاشية.

– التسويق الغير مباشر لهذه المنتوجات عن طريق وضعها في الهدايا التي تبعث إلى الدول الأوروبية والتباهي بها في الخارج. وفي المقابل فضل البايات (حمودة باشا) الهدايا المأخوذة من المنتوجات المحلية.

-وجود الأندلسيين الذين ساهموا في تطوير الصناعة وتنميتها من خلال إدخال تقنيات وطرق جديدة.

-الاهتمام بأصحاب الحرف والصناعات الصغيرة والمحلية.[3]

---

[1] - أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط 1، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، القاهرة ،1991م ، ص173

[2]- رزيقة محمدي، الإصلاحات الاقتصادية بإيالة تونس في عهد حمودة باشا 1782 م / 1814م، مجلة كلية التربية الإسلامية للعلوم التربوية والإنسانية، عدد 30، جامعة بابل، ديسمبر 2016م، ص 92.

[3]- بشرى ناصر هشام الساعدي وميساء لؤي عبد الله: حمودة باشا ودوره الإصلاحي في تونس 1782م/814م، مجلة الآداب، العدد 127، جامعة المستنصرية، ديسمبر 2018، ص 216.

2-أهم الصناعات: يمكن تقسيمها إلى صناعات مدنية وأخرى عسكرية، حيث احتوت الصناعات المدنية:

الصناعة النسيجية: انتشرت هذه الصناعة في عدة مدن كسوسة والحمامات والجريد وجربة وزغوان، وتوزر بالإضافة إلى الحاضرة تونس التي كانت تنتج أنواع مختلفة من النسيج كالحرير لتعرف هذه الصناعة تطورا في ورشاته المنتشرة، وتميزت بالدقة والإتقان [1] لتصبح منافسة للمنتوجات الأوروبية، ولعل أهم هذه المنتوجات نجد الحريرية والكتان والشالات والبطانات الصوفية[2]. كما برع الأندلسيين في الصناعات المتعلقة بها كالتطريز والتوشيح وصناعة القفطان ...

وتنضوي تحتها عدة حرف صناعية مثل:

أ- **صناعة الشاشية:** عرفت صناعة الشاشية منذ القدم خاصة في العهد الحفصي غير أنها لم تكن تعرف رواجا كبيرا خلال هذه الفترة، وبعد مجيء الأندلسيين إلى تونس عرفت هذه الصناعة ازدهارا وتوسعا؛ وهذا في عهد عثمان باي (1598م – 1610م) الذي أعطاها عناية خاصة، وبتولي حمودة باشا الحكم تواصل اهتمامه بهذه الصناعة وأولاها عناية خاصة، كما أنه شجع ومول صناعها وتبين هذا في تأمين النوعيات الرفيعة من الصوف التي تشكل مادة الأولية في صناعتها.

وتبدو أهمية هذه الصناعة في البلاد التونسية في قول أحد المؤرخين على لسان طبيب:" إنّ أهمّ الصّناعات الحرفيّة بتونس هيّ بدون منازع صناعة الشّاشيّة التي كانت تحظى في تونس برواج يفوق رواج الشاشيّة المصنوعة في أوروبا بفضل شكلها وجمال لونها...ولم تكن تنقص التونسيين بصفة عامة الخبرة في مجال العديد من الصّناعات الحرفيّة. وكان يوجد في المدن العديد من المحلات لصنع أنواع الأقمشة والملابس"[3] .اشتهرت الشاشية التونسية خارج البلاد إذ كانت تصدر إلى البلدان المجاورة وحتى الدول الأوروبية وهذا راجع إلى جودتها ودقة صنعها بالإضافة إلى جمال شكلها فهي مستديرة الشكل ولونها أحمر قرمزي هذا ما جعلها جميلة ومميزة، وقد أطلق على صانعها تسمية الشواشي نسبة إلى الشاشية[4].

ب- **صناعة الحرير:** عرفت هذه الصناعة رواجا كبيرا بإيالة تونس، ولهذه الصناعة معلمون عارفون بها، حيث يصنعون مناديل من الحرير تصنع بالفضة تغطي به المرأة التونسية رأسها، كما تصنع أحزمة حريرية والأعجرة التي تتحجب به النسوة[5] .

_ **صناعة العطور:** اشتهرت هذه الصناعة في تونس بسبب امتلاك البلاد لعدة أنواع مختلفة من الأشجار المزهرة كأشجار البرتقال والورود ذات الروائح العطرة، هذا ما شجع على امتهان هذه الصناعة لتستطيع بلاد تونس بإنتاج نوع خاص من العطور لا تقل أهمية وجودة على تلك التي تصنع خارج البلاد ما دفع إلى كثرة الطلب الخارجي عليها[6].

---

[1] - Marcel, op.cit, p 100.

[2]- إبن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 77- رزيقة محمدي، المرجع السابق، ص93.

[3] - Marcel, op.cit, p 129

[4]- ياسين صندي، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية والاقتصادية بين تونس وفرنسا 1117_1197ه /1705_1782 م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، 2013م، ص 136.

[5] - محمد بن عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسي الهدية او الفوائد العلمية في العادات التونسية، دراسة وتحقيق الجيلالي بن الحاج يحيى، تقديم محمد اليعلاوي، ط1، دار سراس للنشر، تونس ،1994م، ص 108

[6]- رشاد الإمام، المرجع السابق، ص 291- رزيقة، المرجع نفسه، ص 104.

_ صناعة الحلي: تخصص اليهود في هذه الصناعة هذا ما أدى إلى انتشارها في تونس؛ ومن بين المنتجات نجد ترسيع المصبوغ بحجر الألماس الكبير بالإضافة إلى الحلي المصنوع من الفضة وانتشار منتجات مطرزة بالذهب مثل محافظ الجيب والبروج والأعمدة[1]. بالإضافة إلى هذه الصناعات نجد صناعة الخزف و السجاد وصناعة الجلود والتي كانت تصدر إلى الخارج وبكميات كبيرة.

ساهم في وجود الصناعة العسكرية عدة عوامل جعلتها تعمل باستمرار على توفيرها واستحداثها بإنشاء المصانع الحربية والمنشآت والاستعانة بالخبرات للجالية الأندلسية والاسرى المسيحيين وحتى أحيانا اللجوء مهندسين ذو أصول أوروبية؛ ومن بين أهم هذه الصنائع:

صناعة البارود: وجد في العاصمة التونسية مصنعا لصناعة البارود لكنه كان ضعيف الإنتاج من حيث تلبية حاجات البلاد فيما سبق، ليقوم حمودة باشا ببناء ورشات لصناعة البارود مشجعا الحفاظ على هذه الصناعة نتيجة لتوفر المادة الأولية وهي ملح البارود التي وجدت في عدة مناطق من البلاد (غار الملح وشمال تونس)[2]. إضافة إلى صناعة المدافع وإصلاحها وصناعة القذائف[3].

بناء السفن وإصلاح الموانئ: حضي الجانب البحري هو الآخر بالاهتمام نظر للدور الكبير الذي كان يمثله داخل الإيالة من الناحية العسكرية والتجارية؛ وقد كان لتونس دار صناعة السفن في غار الملح وحسب ما جاء في رحلة هابستراين أنها كانت قليلة التجهيز وما يرسوا بها إلا عدد قليل من السفن الحربية من نوع الغليوطات[4] ليتم نقل مابها في عهد حمودة باشا إلى مقربة من بحيرة حلق الواد بداية عهده وكان لها القدرة على بناء أربعة عشر سفينة حربية.[5]

تعددت أنواع السفن التي كانت ترتبط بين إيالة تونس والموانئ الأوروبية والمغاربية مثل "البريك"، و"غواليت"، و"الشباك" ، و"الفلوكة" إلى جانب بومدار ، البريقانتي والفرقاطة[6].

كان الهدف إعادة النشاط البحري التونسي توفير المادة الأولية من أخشاب ومستلزمات أخرى سواء كانت محلية أو مستوردة من الخارج والاستعانة بالخبرة الأجنبية في هذا المجال زادت القوة البحرية لتونس حتى ذكر أنها أضحت قادرة على هزيمة العدو[7]، وهذا ما ذكره قنصل الولايات وليام إيتون سنة 1799م عن زيادة عدد السفن الحربية ب 94 سفينة مسلحة بمجموع 928 مدفعا وحوالي 88 سفينة غير مسلحة.

3-الإنتاج الحرفي:

تركز في المدن الرئيسية خاصة، تونس، صفاقص، سوسة، بحيث اعتمدت على المهارة اليدوية التقليدية والموروثة، وذلك تلبية للحاجيات المحلية الضرورية لسكان الأرياف وكمالية لسكان المدن إضافة إلى تصديرها للأسواق الخارجية، وقد شجع على ذلك اعتناء الحكام.

---

[1]- إبن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 108- رضا بن رجب، المرجع السابق، ص 36.
[2]- رزيقة محمدي، المرجع السابق، ص 91.
[3]- إبن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 83.
[4]- ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ / 1732م، ترجمة وتقديم وتعليق: أ.د. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس،2007، ص 199
[5]- فيصل قاسم، الحركة التجارية بين موانئ بلدان المغرب خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1435ه/ 2014م، ص 42.
[6]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 35- فيصل قاسم، المرجع السابق، ص42.
[7]- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1350ه، ص 128

وجود الأندلسيين الحرفيين وحتى اليهود ساهم في انتشار الورشات التقليدية وعرفت الأحياء بأسماء الصناعات (مثلا الشواشية ، البشماقية، المقايصية ، الخرداجية ، المقفالجية) ، ومن أبرز هذه الحرف:

صناعة الخزف والفخار:انتشرت بجربة ونابل، يُعالج بهما الرخام ويُحضر الجبس ويصنع الأجر والقرميد.

صناعة الجلود: كانت رائجة في المدن والبوادي لإنتاج السروج والمحافظ والاحدية وأغمدة السيوف والقراب والأحزمة.

صناعة المستحضرات: تتمثل في صناعة العقاقير وتقطير ماء الورد واستخراج العطور. وقد اشتهرت بها نواحي تونس وزغوان وهي صناعة متوارثة عند الأتراك والاندلسيين.

عرفت الحرف خلال الفترة التي سبقت حكم حمودة باشا تراجع كبير نتيجة رواج المنتوجات المستوردة وبهذا أصبح التجار سوى باعة للبضائع المستوردة[1] ، ما أنتج تكدس لسلع الحرفين والصناع[2] غير أن الوضع عرف تغير جذري في عهد حمودة باشا لتصبح الصناعة المحلية مكانة كبيرة في تونس لا تقل أهمية عن كل من الزراعة والتجارة.

وبالعودة إلى الصناعات اليدوية فنجد معظم المواد المصنعة كانت موجهة للاستهلاك المحلي ماعدا البعض منها كالشاشية التي كانت توجه للتصدير، وقد وجد لكل صنعة أمين خاص يشرف على مراقبة وحل النزاعات بين الحرفين[3].

خلاصة:

لم تكن الصناعة أقل أهمية من الزارعة، حيث لقيت هي الأخرى عناية كبيرة من طرف الباي والبداية كانت من تشجيعه للصناعة المحلية. ومن جانب آخر عرفت الحرف والصنائع التونسية قفزة نوعية خاصة بعد الإصلاحات في عهد حمودة باشا.

[1]- أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تح: لطيف فرج، ط1، دار الفكر لدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ص 174

[2]- محمّد بن عثمان السنوسي، مسارات الظريف بحسن التعريف، تح وتع: محمد الشاذلي النيفر، ط1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994، ص 121.

[3] - ياسين صنديد، المرجع السابق، ص136.